

المرأة فى ثلاثة أجيال

صوفى عبد الله

«المارد الذى خرج من القمقم». هذا هو الشعب الذى رسم نجيب محفوظ صورة تطوره فى السنوات الثلاثين التى انقضت من الحرب العالمية الأولى حتى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

ثلاثة عقود من الأعوام خرجت فيها ثلاثة أجيال، الفرق بين كل جيل منها والذى يليه كأنه ألف سنة.

ولكن هذا المارد الذى خرج من القمقم لم يكن ماردا مذكرا فحسب، بل كان معه أيضا مارد مؤنث. فالمرأة المصرية - كما تبدو فى أعمال نجيب محفوظ - تبدلت صورتها فى هذه الأجيال الثلاثة كأنها رؤية حرية لا تثبت على حال.

المرأة المؤنثة التى ظلت ألف سنة - وربما أكثر من ذلك - «حرمة» أو «حريما» للرجل تتمثل فى أنقى صورها عندما نفتح أولى صفحات «بين القصرين». إنها المرأة الزوجة، التابعة، المنقادة، التى تجد ذروة وجودها وكيانها كله فى «التلاشى» فى إرادة الرجل المعين الذى قسمته لها الأقدار.

هذه المرأة الزوجة المثلى - بحسب مفهوم الحریم - هى أمينة، زوجة أحمد عبد الجواد، التى نراها عند منتصف الليل استيقظت كما اعتادت أن تستيقظ فى هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره، ولكن بايحاء من «الرغبة» التى تبيت عليها فتواظب على إيقاظها فى دقة وأمانة. وبأدائها الفلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها، فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على

ظلام الحجرة الدامس.. وكان ما يشمل البيت من صمت ينم على أن بعلمها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه؛ فهي العادة التي توقظها في هذه الساعة - عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعها، ولا تزال تستأثر بكهولتها، تلقتها فيما تلقت من أدب الحياة الزوجية - أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلمها حين عودته من سهرة فتقوم على خدمته حتى ينام. وهي اليوم في الأربعين من عمرها. وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة، فسرعان ما وجدت نفسها عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير تعاونها امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة الفرن بالفناء، تاركة إياها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود زوجها العنيد من سهرة طويلة».

وفي هذه الصورة الافتتاحية نرى سمات كثيرة واضحة يكاد نجيب محفوظ يضع خطوطا تحت كل سمة منها: فأمانة هنا ليست حالة فردية. ولكنها نموذج لآداب مجتمع معين في طبقة معينة هي الطبقة الوسطى الميسورة الحال من أبناء البلد التجار في المدن الكبرى. وما تفعله في الأربعين ظلت تفعله منذ تزوجت وهي في الرابعة عشرة وهي لم تفعله مستقلة بنمط سلوكها، بل لأن هذا هو النمط المفروض في الحياة الزوجية في بيتها: فهي تقوم طول النهار بأعباء الخدمة في البيت. وهي يومئذ أثقل من أعباء خدمة البيوت اليوم بمراحل كثيرة. فالبيوت كبيرة مترامية الأطراف متعددة الطوابق، لم يدخل عليها نظام «الأجنحة» أو «الشقق» الصغيرة المعروفة لنا الآن. والخبز لا يقوم بصناعته الخبازون في أفران عامة، بل تقوم المرأة في البيت بالعجن والخبز لأهل بيتها والطهو يتم في الأفران المنزلية التي توقد بالخشب أو الفحم أو الحطب على حسب الظروف. فالنهار كله مزدحم بالعمل المجهد، حتى إذا جاء الليل وأطفئت مصابيح البترول في البيت ونام العيال والخدام كان على الزوجة أن تقطع نومها تقطيعا - وبلا منبه - كي تكون يقظانة حسنة الهندام صاحبة الذهن والحواس حين يعود سيدها ومولاها - فهذا الاسم كانت تدعو زوجها - لتقوم على خدمته عندما يحلو له أن يعود قبيل الفجر من سهرة الطويلة هاشة باشة حفية به!

ولا يذهبن بك الظن أنها تفعل ذلك مسخرة له ضيقة به بل عن «رغبة». وحينما تصل الواجبات المرهقة في الخدمة إلى أن تكون رغبة باطنة تتغير صورة الإنسان من الإكراه إلى الطبع، فيكون عبدا مطبوعا لا عبدا مرغما.. ولا يجد في وضعه ما

يسخطه، بل هو يتمسك به ويكاد ينخلع قلبه إذا تهدد هذا الوضع خطر يفتح له أبواب سجنه و«يبتليه» بالحرية!

إن صورة الحياة فى وجدان أمينة - وفى وجدان كل أمينة على شكلها من بنات نمطها فى جيلها - صورة مستقرة لا يخطر ببالها أن غيرها من الصور ممكن أو مستساغ. فكل شىء ثابت له نواميس متصلة بنواميس الكون كلها فى مجموعها. ومن الطبيعى أن كل ما فى هذه الحياة خاضع لقوى قدرية لافكاك منها فالحياة والموت يحكمها القدر فكل شىء مقدر مقسوم، من رزق وصحة وعمر، وليس على العبد إلا الطاعة، وخير ما يجوز له أن يصبو إليه أن يكون عبداً أميناً، أو عبدة «أمينة».. والزوج وكيل الله فى حياة المرأة قصارها أن تعيش له. وكل تفكيرها وإرادتها وإحساساتها من باطن ذلك الرجل، لحسابه الخاص؛ فهى ليست كائناً مستقلاً فى شىء من هذا كله. وحتى ليلها ليس طليقاً، فهو عامر مأهول بقوى الجن والشياطين التى يتم بسلطانها المرهوب إحكام الرقابة والسيطرة على كل شىء فى حياة المرأة فى السر والعلن، فى الراحة والعمل، فى النهار والليل، «فلم يكن يغيب عنها - هى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرف عن عالم الإنس، إنها لا تعيش فى البيت الكبير وحدها. فكم دب إلى أذنيها من همسات الجن وكم استيقظت على لفحات أنفاسهم.. فتقرأ الصمدية ولكنها لا تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب».

وأنها للفتة نفسية بالغة العمق من هذه العبقرية الفنية المبدعة أن تربط بين هبة الجن فى نفس أمينة وبين وجدانها الخاضع وإرادتها السلبية بصفة عامة. فمثل هذه النفس لا يمكن أن تعرف الاستقلال من الرهبة فى أى أفق من آفاقها، ولا بد أن تسود ظلمة التحكم الاستبدادى القاهر المدعور، كل وجه من وجوه سلوكها وإحساسها وليس بلا مغزى أن الجن يفزعونها هى، أما زوجها فلا يفزع من الجن، بل ينكمشون بحضوره! وينقلب هذا الذعر إلى رغبة عن طريق ما يحتال به اللاشعور من محاولة التقرب إلى مصدر الذعر والتماس رضاه بإظهار الحب له وهى حيلة نفسية لا شعورية كما قلنا، فيظل صاحبها جاهلاً بدوافعها.. ويعتقد أنه مخلص فى ذلك الحب والولاء حتى النهاية.

بل يصل الأمر فى هذا النمط من التبعية المتزلفة إلى الإخلاص فى التفانى، بحيث توأد الغيرة الأنثوية الفطرية: «وقد خطر لها مرة - فى العام الأول من معاشرته - أن

تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل، فما كان منه إلا أن أمسك بأذنها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة «أنا رجل، الأمر النهى، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة فحاذرى أن تدفعينى إلى تأديبك» فتعلمت أنها تطبق كل شىء حتى معاشره العفارىت - إلا أن يحمر لها عين الغضب. وقد أطاعت وتفانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرها، ووقر فى نفسها أن الرجولة الحقه والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أو يحزنها - وحتى ساعه الانتظار هذه - على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمه - أحببتها من أعماق قلبها فإنها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدبها على بعلمها وتفانيها فى إسعاده، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذلك الحدب».

وحتى مخادنته للنساء فى سهراته تتراءى لها «من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد.. ووجدت أن موقفها من الغيرة شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئاً، فلم تهتد إلى وسيله فى مقاومتها إلا أن تنادى الصبر، وتستعدى مناعتها الشخصية، ملاذها الأوحده فى مغالبه ما تكره، فانقلبت الغيرة وأسبابها، كطباع زوجها الأخرى، وكمعاشره العفارىت، مما يحتمل».

بل إن مجلسها معه فى ساعه الخلوه ليس مجلس الأنثى من الذكر من أبناء النوع الواحد من أنواع الكائنات الحيه، فهى إذا «أغلقت الباب سحبت شلته من تحت السرير فوضعتها أمام الكنبه وتربعت عليها، إذ لم تكن ترى لنفسها الحق فى أن تجلس بجانبه تأدبا، وهى ملازمه الصمت حتى يدعوها إلى الكلام فتتكلم.. وإذا جلس للطعام لم تؤاكله، بل تقف وراءه مستعدة للخدمه فى يقظه».

وكل ذلك كان فى سنة ١٩١٦، ولا يخلو البيت فى تلك الفتره وما بعدها على الخصوص بأحاديث فى السياسه عن السلطان الذى مات وأبى ابنه أن يجلس بعده على العرش، وعن السلطان فؤاد الذى أجلسه الإنجليز على ذلك العرش بعد موآند القمار. ثم انتهت الحرب وكثر حديث السياسه، وكثرت المشاركه فيها، ولكن دور أميينه من ذلك كله - جل أمره أو هان - هو دور «الأطرش فى الزفقه». فهى لا تدرى من

ذلك الحديث كله شيئا، وترى «أولى الأمر» واجبة طاعتهم، كما تطيع هي التقاليد، وكما تخضع هي لسلطانها الخاص - وهو زوجها - وكما تتحاشى إغصاب الجن. وإذا ما شارك بنوها بعد قليل في السياسة ذكرت ما انتهى إليه أمر عرابي على يد الإنجليز الأقوياء وملكتهم فكتوريا ولما رأت بعينها عساكر الإنجليز أمام بيتها في أيام الأحكام العرفية سنة ١٩١٩، وكيف استباحوا الحرمات ثار غضبها، ولكنه غضب يشله الخوف من العنف والقوة الباطشة، فهي تقول لابنها فهمي المتحمس «ارحم نفسك يا بني، ربنا يلفظ بنا!» وهي تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج، وقلها لم يخل من أسف على أفندينا عباس واقرن النفي في ذهنها بالأس من العودة وإلا فأين أفندينا؟ ومن أجدر منه بالعودة من المنفى؟ «فأفندينا في نظرها ولي الأمر الشرعي الذي نشأت في طاعته ولا تتصور انقضاء ولائها له أو انتقاله إلى سواه. وهي تقول لفهمي ابنها «لا تبد للجنود الإنجليز الكراهية. إن كنت تحبني لا تفعل. وهي قلقة طول النهار «فإن احتمال تعرض الجنود لأحد رجالها في ذهابه أو إيابه لم يكد يفارق رأسها».

وعندما سيق زوجها بين الجنود الإنجليز لحفر الخندق.. وحمل الأتربة أبغضتهم بغضا لا حد له، لأن أذاهم وصل إلى بيتها وزوجها؛ فالقضية العامة عندها لا يكاد يكون لها وجود إلا بمقدار ما تمس حياتها الضيقة الحدود.

ولما استشهد فهمي في المظاهرة السلمية برصاص الإنجليز الغادر خطرت أمينة ببال زوجها لأول مرة «فأوشكت أن تخونه قدماه.. ماذا عسى أن يقول لها؟ كيف تتلقى الخبر الضعيفة الرقيقة التي تبكى لمصرع عصفور! ماذا تصنع لمقتل فهمي؟ أتذكر كيف همت دموعها لمقتل ابن الفولى اللبان؟ فماذا تصنع لمقتل فهمي؟».

وهنا يترك الفنان الصورة لترسمها مخيلة القارئ، ولا يرتكب تجسيد حزن أمينة وجزعا على مصرع ابنها الحبيب أو «سیدی الصغير» كما كانت تناديه. فهو تصدع الجبل، وتزلزل الأرض. إنه الحزن الوجيع، حزن المرأة الضعيفة التي هيهات أن تجد الاستشهاد في سبيل القضية العامة عزاء عن فجيعتها الخاصة.

وهكذا تتم صورة أمينة، صورة المرأة القديمة، الزوجة المتفانية في ولائها، التي تضيق آفاق حياتها جميعا فتحصن في ذلك الولاء الدليل في أضيق حدوده الاجتماعية والفكرية.

وينبغى ألا نخلط بين ضيق الأفق هنا وبين المستوى الجدير بالاحترام؛ فمقاييس أمينة هي أرقى نموذج للزوجة في زمانها وبيئتها، فالعيب ليس في أمينة، بل العيب في الظروف الفكرية والاجتماعية التي جعلت منها ثمرة طبيعية جدًا لها.

* * *

أما الجيل التالي لهذا النموذج، الجيل الذي ظهرت فيه على آثار المرأة المنقادة الضعيفة السلبية امرأة حازمة تملك زمامها وتسوس الأسرة وتتولى مقادها في اقتدار الربان أو القائد في الميدان، فهذا ما يمثله لنا نموذج الأم في «بداية ونهاية».. المرأة التي تتصدى للمسئولية الثقيلة المؤلمة وتنهض بها في غير تردد أو تخاذل، وهى على النقيض تماما من المرأة الضعيفة «الولية» التي يقوم بالولاية عليها مخلوق أقوى منها.

والإطار الأمثل لظهور هذا النموذج هو وجود الأسرة فى حالة تأزم نفسى واجتماعى واقتصادى، وانعدام العائل الشرعى لها. وكل ذلك توفر فى بداية ونهاية منذ صفحتها الأولى ومنذ الصفحات الأولى أيضا تبرز شخصية هذه المرأة «المسئولة» ككفاء لمسئوليتها الجسيمة:

«لم يخلف الراحل شيئا، وهيئات أن تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفد فى ضرورات الأسرة. وقد وجدت فى محفظته جنيهين وسبعين قرشا هى كل ما تملك من نقود حتى تنتظم الأمور. ورنا بصرها إلى حجرة الأبناء فى سهوم: اثنان فى المدرسة - معفيان من المصاريف حقا ولكن هيئات أن يغنى هذا عنهما شيئا - أما الثالث ففى حكم الصعاليك!.. وتنهدت من الأعماق، ثم حولت عينها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألما: فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب. وهذه هى الأسرة التى باتت مسئولة عنها بلا معين. بيد أنها لم تكن من النساء اللاتى يفضضن همومهن بالدمع وإن حياتها الماضوية وإن أمست حلما سعيدا موليا إلا أنها لم تكن يسيرة خصوصا فى مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنيئات معدودات. وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائما قوية.. وكانت محور البيت الأول، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الأمهات وضعفهن. أجل كانت امرأة قوية.. واجتمع حولها الأبناء

وهم يشعرون بأنه آن لهم أن يسمعوا لها. ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله.. ولعله لم يكن يحيرها شيء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة، وباطنها الذى يندى رحمة وعطفا.. وشعرت بالخلاء يكتنفها، ولكنها أبت أن تستسلم لليأس وقالت:

«ليس لنا من قريب نعتمد عليه. وقد رحل العزيز الغالى دون أن يترك لنا شيئاً إلا معاشه، ولا شك أنه دون المرتب الذى لا يكاد يكفيننا؛ فالحياة تبدو كالحجة الوجه، ولكن كم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها إلى بر الأمان.. فلا يجوز لنا أن نياس، ولكن ينبغى أن نعرف رأسنا من قدمنا وإلا هلكنا، وأن نوطن نفوسنا على تحمل ما قدر لنا من حظ بصبر وكرامة.. لا مصروف بعد اليوم لحسين وحسين، وأحذر كما من ترك نصيبكما من الغذاء المدرسى كما تفعلان عادة..!»

أم كفاء للقيادة فى الملمات، لا تطيش الكارثة صوابها منذ البداية حتى النهاية تعرف بالضبط ماذا تريد، ولا تدع مجالاً لعواطفها أن تغلبها فتتخاذل. إنها تواجه الواقع بتدبير عملى فى غير تضعف ولا تترك التحسر يغلبها فلا بد مما ليس منه بد، ولا فائدة فى البكاء والتباكى. ولذا نراها لا تكتفى بهذه التدابير السلبية للاقتصاد والتوفير، بل تتخذ خطوة إيجابية جريئة لتلافى العجز فى دخل الأسرة: «ورددت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت أشفارهما بين أبنائها ثم قالت:

- أما نفيسة فتحسن الخياطة. وهى تخطط كثيرا لجاراتنا محبة ومعاملة ولست أرى بأساً فى تقاضيتها على تعبها مكافأة.

وصاح حسنين بغضب وقد اصفر وجهه:

خياطة؟ لن تكون أختى خياطة. كلا، ولن أكون أختاً لخياطة.

وقطبت الأم فى غضب وصاحت به:

- أنت تثور، تأكل وتنام، ولا تدرى عن الدنيا شيئاً: وهيهات أن يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا!

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به:

- اخرس!

فنفخ دون أن ينبس بكلمة ورأت الأم أنها فرغت من معارضته فالتفتت إلى حسين فالتقت عيناها برهة قصيرة، ثم خفض الفتى عينه وتمتم على مضمض:

إذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله..!

فقال الأم بتأثر:

ما عيب إلا العيب.. لست أحب لأحد منكم المهانة، ولكن للضرورة أحكام، ولا حيلة لى..!

وفى سائر المواقف تبدو أم حسن بهذه البادرة من الحزم الصارم. إنها امرأة تعرف لها مسئولية واضحة محددة لا تعرف شيئاً سواها تقيم له اعتباراً. فالسياسة لا شأن لها بها، ولا تحب لأولادها أن يخوضوا فيها. ومشكلات المجتمع كمسائل عامة لا تطوف بذهنها.. فهى تقر الإطار الاجتماعى العام، وتعترف بما فيه من قيم، ولكنها كالجرح الذى يعرف قيمة أعضاء الجسم؛ ومع ذلك يبتز منها ما يبتز إبقاء على الحياة فى جملتها. وهى لا تضع نصب عينها سوى وصول أسرتها إلى بر الأمان كائنا ما كان الثمن، ولو ببعض المهانة، وبر الأمان عندها هو رفع الأسرة البرجوازية من كبوتها لتعيش فى مستوى اقتصادى أفضل، فى مسكن لا يخجلون منه كمسكنهم الأرضى الجديد، ويكتسون ويأكلون بغير حرمان، وينفقون فى شىء من السعة، ولا تشتغل الابنة خياطة، ويكون لهم «مركز» أو «وضع» اجتماعى محترم يتمثل فى الوظائف المريحة بالدولة.

وهى قضية ليس فيها عنصر واحد عام، فكل ما فيها خاص وعلى أساس الاعتراف بالأوضاع الاجتماعية السائدة فى غير مناقشة وبذلك يكون كل اشتغال من جانب أولادها بما يجاوز هذا الهدف الجزئى المحدد نوعاً من الخيانة أو الهروب من ميدان المعركة الأوحده؛ فلا قضايا وطنية، ومن باب أولى لا قضايا اشتراكية تناقش العدالة الاجتماعية. وإنما هى العزيمة والصلابة فى إقامة ما تدعى من البناء العائلى اقتصادياً واجتماعياً، وعلى نحو أفضل - من وجهة نظرها المحددة - إن أمكن ذلك.

فهى قائد قوى، ولكن فى ميدان صغير، ولغاية صغيرة؛ لأن نظرتها الضيقة تحول بينها وبين رؤية الأمور الكبيرة فى خارج مجال رؤيتها المحدود.

وهذه المرأة هي الثمرة الطبيعية لجيل ثورة ١٩١٩ الذى عرف معانى الكرامة والاستقلال والطموح، ولكن على المستوى الفردى. وكل عيوب نمطها راجعة إلى عيوب البيئة والمرحلة التاريخية التى أنبتته.

أما الجيل الثالث، فنلتمس نمطه فى الثلاثية مرة أخرى. وفى أخريات السكرية أى ختام الثلاثية كلها. إنه جيل المرأة التى خرجت فى النهاية من القمقم وسبقت الفتى فى كثير من الاتجاهات الواعية التقدمية.

إنه جيل «سوسن حماد» المحررة السياسية المكافحة المؤمنة بالاشتراكية العلمية، ابنة العامل صفاف الحروف فى مطبعة الجريدة التقدمية التى يعمل بها أحمد شوكت كما تعمل بها سوسن. وعنها يقول نجيب على لسان أحمد شوكت الشاب التقدمى المتحمس: «إننا زميلان مخلصان لم ينطق الحب بيننا ولكن لا أشك أننا متحابان ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون، بدأنا رقيقين فى ميدان الحرية وعلما يدا واحدة، وكلانا مرشح للسجن، وكنت كلما نوهت بجمالها حملت فى وجهى محتجة وزجرتنى مقطبة كأن الحب شىء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنا فيه من عمل.. وقلت لها يوما «إنى مثلك أرى الرأسمالية فى طور الاحتضار وأنها استنفدت كافة أغراضها، وأن على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدير آلة التطور، إذ أن الثمرة لن تسقط وحدها، وإن علينا أن نخلق الوعى، ولكنى بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك!». ولثمت خدها فحدجتنى بنظرة قاسية وأكبت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة فى الاتحاد السوفيتى الذى كنا نترجمه معا».

نمط الفتاة العاملة الجادة القوية المعتدة بنفسها وبدورها الرائد فى التطور الفكرى والاجتماعى، لا تبالى بالسجن عند اللزوم.

وما أعظم الفرق بين هذا النمط والنمطين السابقين، من حيث الأهداف والدوافع وأفق الرؤية، وإن يكن فيه من نمط المرأة القوية المسؤولة أم حسن مشابه من الحزم والإرادة والتصميم وتقديم «المعركة» على العاطفة.. على ما بين المعركتين من فروق هائلة.

حبيبتى لا تمل الحديث عن مبادئها.. وعندما قلت لها إنى تواق لسماع كلمات الحب من ثغرها المشغول بالاشتراكية وبختنى قائلة باحتقار «هذه النظرة البورجوازية

العتيقة إلى المرأة.. هه؟! «فقلت لها إن احترامى لك فوق كل كلام، وإنى لأعترف بأنى تلميذك فى أنبل ما صنعت فى حياتى، ولكنى أحبك كذلك وما فى ذلك بأس... وإنما لكائن بديع جميل العقل والجسم معا رغم إغراقها فى السياسة، وعندما دعوتها للنزهة فى الحديقة قالت «على شرط أن نأخذ الكتاب معنا لنواصل الترجمة»... وكان يخيل إلى قبل ذلك فى ساعات التقهقر والخور أن الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست إلا نوعا من الفتنة كضرب البيانو والتبرج، ولكن المسلم به كذلك أن العام الذى زاملت فيه سوسن قد غيرنى كثيرا وطهرنى لدرجة محمودة من أدران البورجوازية المستوطنة فى أعماقى!..

... وقلت لها مازحا:

- سيلقى القبض علينا آجلا أو عاجلا إلا إذا أدبنا الزواج!

فهزت منكبيها بازدرء وقالت:

- من أدراك أنى أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك؟

- مزيف؟

فتفكرت قليلا ثم قالت باهتمام جدى:

- لست من طبقة العمال مثلى! كلانا يحارب عدوا واحدا، ولكنك لم تخبره كما خبرته. لقد ذقت الفقر طويلا، ولمست آثاره الكريهة فى أسرتى، وغالبته أخت لى حتى غلبها فماتت، أما أنت فلست... لست من طبقة العمال!

- ولا كان أنجلز من هذه الطبقة!

-... لا أنكر عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيقة.

- أنت مخطئة ياظالمة لا يعينى ما ورثته، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعينى. لا يعيب أحدا أن يجد نفسه بورجوازيا، ولا عيب إلا فى الجمود والتخلف عن روح العصر.

فقال له وهى تبتسم:

- لا تغضب! كلانا ظاهرة طبيعية علمية. لا نسأل عما وجدنا أنفسنا عليه، ولكننا

مسئولون عما نعتنق ونفعل. إني أعتذر إليك يا أنجلز.. ولكن يهمنى شيء واحد..
كرامتي!.. وأنت أدري بتقاليد أناسك! ستستمع كثيرا عن الأصل والفصل وسائر هذه
القيم البورجوازية.

- لست منها في شيء.

- هل تدرك خطورة قولك؟ سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن
الكلمات المأثورة مثل: حب. زواج. الغيرة. الوفاء. الماضي.

صورة جديدة تماما للمرأة التي تقيم عالما جديدا بكل قيمه على أنقاض عالم
قديم بكل قيمه، في ثقة وجرأة وشجاعة وإيمان واستعداد للتضحية بكل شيء:
تضحية بالحرية الشخصية عن طريق السجن، وبالهناء الشخصي عن طريق رفض
الزواج التقليدي الموروث.

امرأة كل ما فيها جديد. امرأة تقود ولا تقاد وامرأة تقلب الأنظمة وتقيم
أنظمة غيرها، امرأة هي إنسان رائد مرید فعال لما يريد، مشغول بأمر البشرية كلها
قبل أمر نفسه وذويه.

وهكذا تم خروج الماردة من القمم كما صور أطوار خروجها منه أديب مارد
ثاقب النظرة متعدد الأعماق.

عن كتاب «حواء وأربعة عمالقة»

القاهرة ١٩٧٦.